



## المظاهر الإسلامية وأثرها في البناء الحضاري لمملكة مالي خلال القرن الثامن الهجري دراسة تاريخية تحليلية

د. عباس إسماعيل

محاضر في جامعة السلام للعلوم والتنمية- توغو.

و

### شكل

القرن الثامن الهجري مرحلة مفصلية في تاريخ الغرب الإفريقي، حيث برزت إمبراطورية مالي بوصفها إحدى أبرز القوى السياسية والحضارية في المجال الإسلامي آنذاك. ولم يكن صعودها مجرد توسع سياسي أو ازدهار اقتصادي عابر، بل ارتبط ارتباطاً وثيقاً بتسخير المظاهر الإسلامية في بنيتها الداخلية، وبانخراطها الفاعل في شبكة العلاقات الحضارية للعالم الإسلامي. فقد أسهم الإسلام - باعتباره منظومة عقديّة وتشريعية وقيميّة - في إعادة تشكيل البناء الاجتماعي والتعليمي والسياسي للدولة، كما كان عاملاً حاسماً في توجيه مساراتها العمرانية واللغوية والاقتصادية.

وقد تميّزت هذه المرحلة بوضوح الحضور الإسلامي في مختلف مناحي الحياة، ولاسيما في عهد السلطان منسا موسى ومن بعده أخيه منسا سليمان، مع تعزيز الشعائر الدينية، وانتشار التعليم القرآني، وترسيخ العدل والاستقرار الاجتماعي، فيما أسهمت رحلات الحج والعلاقات مع المغرب ومصر في نقل مؤثرات حضارية انعكست في العمران، وانتشار العربية، وتنشيط التجارة الصحراوية.

ومن هنا تتبع إشكالية الدراسة التي تتمثل في التساؤل الآتي: إلى أي مدى أسهمت المظاهر الإسلامية في تشكيل البناء الحضاري لإمبراطورية مالي خلال القرن الثامن الهجري؟ وهل كان تأثير الإسلام تأثيراً شكلياً محدوداً في بعض الطقوس والشعائر، أو أنه مثل ركيزة عميقة في صياغة البنية الحضارية للدولة داخلياً وخارجياً؟

وتسعى هذه الدراسة إلى معالجة هذه الإشكالية عبر تحليل المظاهر الإسلامية في المجال الديني والاجتماعي والتعليمي، ثم استجلاء أثرها في ازدهار العلاقات والتفاعل الحضاري، وما نتج عنها من تطور عمراني، وانتشار للغة العربية، ورواج للتجارة.

وتعتمد الدراسة المنهج التاريخي التحليلي، القائم على استقراء النصوص التاريخية وربطها بسياقها الحضاري، والموازنة بين الروايات، واستحضار البعد التفسيري في قراءة الأحداث، بما يتيح فهماً أعمق للتجربة الحضارية المالية في إطارها الإسلامي العام.

وتكتسب هذه الدراسة أهميتها من كونها تسلط الضوء على نموذج إفريقي إسلامي ناجح في الاندماج الحضاري، وتعيد إبراز

دور الإسلام في بناء الكيانات السياسية في الغرب الإفريقي، بعيداً عن الاختزال الذي يحصر التجربة في بعدها الاقتصادي أو في رحلة الحج الشهيرة وحدها. كما تُسهم في إعادة قراءة تاريخ إمبراطورية مالي بوصفه جزءاً أصيلاً من تاريخ الحضارة الإسلامية، لا هامشاً ملحقاً بها.

وعليه؛ تنتظم هذه الدراسة في تمهيد ومبحثين رئيسيين:

**التمهيد:** يتضمن عرض المصادر وتحليل قيمتها المنهجية، ونشأة إمبراطورية مالي وظروف تأسيسها وأبرز شخصياتها وامتدادها الجغرافي في مرحلة ازدهارها.

**المبحث الأول:** المظاهر الإسلامية في إمبراطورية مالي، في أبعادها الدينية والاجتماعية والتعليمية، مُبيناً كيف شكّلت هذه المظاهر الركائز الداخلية للبناء الحضاري للدولة.

**المبحث الثاني:** ازدهار العلاقات والتأثير الحضاري، لبيان أثر المظاهر الإسلامية في البناء الحضاري، من خلال دراسة التطور العمراني وفن العمارة، وانتشار اللغة العربية، ورواج النشاط التجاري، وصولاً إلى إبراز طبيعة التفاعل الحضاري الذي ميّز هذه المرحلة التاريخية.

### تمهيد:

#### المطلب الأول: المصادر الأساسية التي

##### اعتمدت عليها الدراسة:

مع أن مصادر التاريخ الإسلامي تزخر بإشارات متعددة إلى مملكة مالي، وبخاصة في سياق الحديث عن حج منسا موسى وما أحدثه من أثر اقتصادي وسياسي في المشرق، فإن المصادر التي تعتمدها هذه الدراسة تُعدّ أقرب إلى موضوع البحث من

غيرها؛ وهي:  
تتاول مملكة مالي في سياق حديثه عن ممالك الإسلام.

٥- تاريخ الفتاش، لمحمود كعت<sup>(٧)</sup> (ت ١٥٩٣م): يُعدّ شاهداً من البيئة السودانية، ناقلاً للذاكرة المحلية، لكنّ تدوينه المتأخر

وفي سياق دولة سنغاي يقتضي قراءة نقدية.

٦- تاريخ السودان، للسعدي<sup>(٨)</sup> (ت ١٠٦٦هـ

تقريباً): مصدر أساسي لتاريخ ممالك السودان الغربي، استند لروايات العلماء

والأعيان والوثائق المحلية. لكنه كُتب في سياق سياسي لاحق، مما يقتضي التعامل معه بمنهج نقدي مقارن.

يتضح من هذا العرض أن الدراسة قامت على أربعة أنماط من مصادر الرواية التاريخية:

١- مصادر عيانية مباشرة: ابن بطوطة.

٢- مصادر تحليلية تاريخية كبرى: ابن خلدون.

٣- مصادر جغرافية إدارية معاصرة:

العمري والقلقشندي.

٤- مصادر سودانية محلية: محمود كعت والسعدي.

وهذا التنوع قد يتيح للدراسة تحقيق

توازن علمي بين الرواية الخارجية (المشرقية

والمغاربية) والرواية الداخلية (السودانية)،

كما يُمكن من المقارنة بين المشاهدات

(٧) محمود كعت، المعروف بابن المتوكل كعت الكرمني

التبكتي الوعكري (ت نحو ١٠٠٢هـ/١٥٩٣م): مؤرخ سوداني من أعلام بلاد السودان الغربي في القرن ١٠هـ، عاصر دولة سنغاي في عهد السلطان أسكيا محمد الأول. يُنسب إليه كتاب (تاريخ الفتاش)، وهو من أهم مصادر تاريخ السودان الغربي ودولة سنغاي.

(٨) عبد الرحمن بن عبد الله السعدي التبكتي (ولد

١٠٠٤هـ/١٥٩٦م): مؤرخ وفتية من أعلام تمبكتو ببلاد السودان الغربي (مالي حالياً). من أشهر آثاره كتاب (تاريخ السودان)، وهو من أهم مصادر تاريخ المنطقة.

١- مسالك الأبصار، للعمري<sup>(١)</sup> (ت ٧٤٩هـ):

يُقدّم صورة رسمية للدولة وبنيتها، مع الاعتماد على روايات دبلوماسية، يحتاج لقراءة نقدية.

٢- رحلة ابن بطوطة، لابن بطوطة<sup>(٢)</sup> (ت

٧٧٩هـ): مصدر عياني مباشر لمملكة مالي في القرن الثامن الهجري، ذو قيمة توثيقية عالية.

٣- تاريخ ابن خلدون، لابن خلدون<sup>(٣)</sup> (ت

٨٠٨هـ): مصدر تحليلي كبير، تتاول تاريخ

ملوك السودان الغربي، جمع مادته من شهود عيان ومعاصرين، كالقاضي ابن وانسول<sup>(٤)</sup>،

والشيخ عثمان فقيه أهل غانة<sup>(٥)</sup>، وغيرهم،

واعتمد في بعض أخباره على النقل غير المباشر.

٤- صبح الأعشى، للقلقشندي<sup>(٦)</sup> (ت ٨٢١هـ):

(١) أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (٧٠٠-٧٤٩هـ). شهاب الدين: مؤرخ وجغرافي، رئيس ديوان الإنشاء

بالقاهرة، من أهم مؤلفاته «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار».

(٢) ابن بطوطة (٧٠٣-٧٧٩هـ/١٣٠٤-١٣٦٨م): رحالة

ومؤرخ وقاض مغربي، لُقّب بـ«أمير الرحالة المسلمين»، أملى رحلته «تحفة النظار» بناس سنة ٧٥٦هـ.

(٣) أبوزيد، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون

(٧٢٢-٧٢٢هـ/١٣٢٢-١٤٠٦م): مؤرخ وفيلسوف، مؤسس علم الاجتماع، ولي قضاء المالكية بمصر، وصاحب «تاريخ ابن خلدون».

(٤) محمد بن وانسول: قاض ثقة من أهل

سجلماسة، تولى خطة القضاء سنة ٧٧٦هـ تقريباً، اعتمد عليه ابن خلدون في تأريخ ملوك السودان.

(٥) الشيخ عثمان: فقيه أهل غانية وكبيرهم معلماً وديناً وشهرة،

كبير فقهاء بلاد السودان الغربي، قدم مصر حاجاً سنة ٦٩٩هـ، واعتمد عليه ابن خلدون مشافهة في تأريخ بلاده.

(٦) أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي، (٧٥٦-٨٢١هـ): مؤرخ

وأديب مصري، برع في الإنشاء واللغة، وصاحب الموسوعة العلمية «صبح الأعشى في صناعة الإنشاء».

المباشرة، والنقل الدبلوماسية، والذاكرة المحلية، والرؤية العمرانية التحليلية. وهو ما يُسهم في تقديم صورة أقرب إلى الشمول عن المظاهر الإسلامية وأثرها في البناء الحضاري لمملكة مالي في القرن الثامن الهجري.

ماري جاطة<sup>(٣)</sup> بذلك حكم صوصو، كما ذكر ابن خلدون<sup>(٤)</sup>.

وبعد استقرار حكمه، سار ماري جاطة إلى عاصمة غانا ودمّر ما تبقى من آثارها، لكنه حافظ على المسلمين داخل الدولة، مؤسساً بذلك أُسس مملكة مالية قوية. وقد اختار لعاصمته الجديدة موقعاً قريباً من نهر النيجر، في منطقة سانكاراني، وأطلق عليها اسم نيّاني<sup>(٥)</sup>.

## المطلب الثاني: نبذة تعريفية عن مملكة مالي:

وتوفي سندياتا كيتا عام ٦٥٣هـ/١٢٥٥م بعد حكم دام خمسة وعشرين عاماً، تمكن خلالها من تحويل دولة صغيرة إلى إمبراطورية مترامية الأطراف، تجاوزت مساحتها نصف مساحة قارة أوروبا، وامتدت في أوج ازدهارها لتشمل أراضي من دول غرب إفريقيا الحديثة، بما فيها جمهورية مالي، شرق السنغال، شمال غينيا كوناكري، شمال بوركينافاسو، أجزاء من شمال جمهورية بنين، غرب وجنوب النيجر، وجنوب موريتانيا<sup>(٦)</sup>.

تأسست مملكة مالي في منتصف القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي على يد قبائل مسلمة تُعرف باسم الماندينغ أو الماندينغو، والتي عُرفت بحماسها الكبير للإسلام ونشره في منطقة غرب إفريقيا. ويشير أ. محمد سعيد باه إلى أن نشأة إمبراطورية مالي تعود إلى حوالي عام ١٢٢٠م<sup>(١)</sup>.

ويُعدّ الإسلام الدين الرسمي في مملكة مالي، إذ كان غالبية الشعب مسلمين، بمن

ويأتي تأسيس المملكة في سياق انهيار دولة غانا الإسلامية؛ فقد قضى ملك صوصو على دولة غانا وأسقطها، ثم ضمّ لمملكته الممالك التابعة لها، ليقوي بذلك مركزه السياسي<sup>(٢)</sup>.

وخلال هذه الأحداث، قتل ملك صوصو سومانغارو ملك مالي وأبناءه الأحد عشر، باستثناء الصغير منهم سندياتا، الذي عُرف لاحقاً باسم ماري جاطة. وقد تمكّن سندياتا بعد أن كبر من استعادة استقلال مالي، وتحقيق النصر على صوصو وقتل إمبراطورها سومانغارو عام ٦٢٣هـ، لينتهي

(٢) لفظ «ماري» يُطلق عندهم على الأمير المنتمي إلى السلالة الحاكمة، أي الذي يكون من نسل السلطان، وهو ما يعكس نظاماً وراثياً في تداول السلطة داخل البيت المالكي. وأما «جاتة» فمعناها الأسد، وهي كناية تُوحى بالقوة والبأس، مما يكشف عن حضور الرمزية الحيوانية في الثقافة السياسية المحلية بوصفها تعبيراً عن الشجاعة والسيادة. ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، (٢٦٦/٦).

(٤) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، (٢٦٦/٦).

(٥) الموسوعة التاريخية، إعداد: مجموعة من الباحثين (١١/٥)، والكتاب مرقم ألياً.

(٦) د. علي يعقوب، دولة مالي الإسلامية، منشور في مجلة قراءات إفريقية، العدد ٢٠ ربيع الآخر-جمادى الآخرة ١٤٢٥هـ/أبريل-يونيو ٢٠١٤م، ص١٦.

(١) أحمد محمد فال، مملكة مالي الإسلامية.. بلاد الذهب التي سبق ملكها إلى استكشاف أميركا، تاريخ النشر: ٢٠٢٤/٨/٢١م، الرابط: <https://www.aljazeera.net>

(٢) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، (خليل شحادة، تحقيق؛ ط٢). بيروت- دار الفكر. (٢٦٦/٦).

### المطلب الأول: المجال الديني:

تجلّى هذا الازدهار في مظاهر عدّة، من أبرزها قوة التمسك بالشعائر الإسلامية والالتزام بأحكام الشريعة: أولاً: أداء الصلوات الخمس: فقد حرصت الدولة ورعاياها على أداء الصلوات الخمس في أوقاتها، والمحافظة على صلاة الجماعة، وإقامة شعائر الجمعة والعيدين. وتشير المصادر التاريخية إلى شدة عنايتهم بتربية الناشئة على الالتزام الديني، حتى إنهم كانوا يؤدّبون أبناءهم على ترك الصلاة، مما يعكس مركزية الشعائر في البناء الاجتماعي آنذاك.

وقد سجّل ابن بطوطة في رحلته إلى بلاد مالي مشاهداته حول التزام أهلها بالشعائر والعادات الدينية، فقال: «ومنها مواظبتهم على الصلوات، والتزامهم لها في الجماعات، وضربهم أولادهم عليها، وإذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلي؛ لكثرة الزحام. ومن عادتهم أن يبعث كل إنسان غلامه بسجّادته، فيبسطها له بموضع يستحقّه بها حتى يذهب إلى المسجد، وسجّادتهم من سعف شجر يشبه النخل ولا ثمر له، ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة، ولو لم يكن لأحدهم إلا قميص خلق غسله ونظفه وشهد به الجمعة»<sup>(٤)</sup>.

يتضمن وصف ابن بطوطة لأهل مالي في هذا النص دلالات وأبعاداً مهمة:

#### (١) الدلالة الدينية للنص:

يدلّ قول ابن بطوطة على أن الصلاة لم تكن مجرد ممارسة فردية، بل كانت ظاهرة

فيهم ملوكهم، وقد أشار المؤرخ البكري إلى أن بعض ملوك مالي كانوا يُعرفون بـ«المسلماني» نظراً لالتزامهم بالإسلام وممارساته<sup>(١)</sup>. وقد دخل ملوك مالي في الإسلام منذ عهد قديم<sup>(٢)</sup>، فأسهّم ذلك في ترسيخ القيم الإسلامية في إدارة شؤون الدولة وتنظيم حياة الرعية.

وقد وصف صاحب (تاريخ الفتاش) مملكة مالي بأنها كانت تشتمل على نحو أربعمائة مدينة، وأن أرضها وافرة الخيرات، حتى قال: «ليس في مملكة سلاطين الدنيا غير الشام أحسن منها»، كما أشار إلى ما كان عليه أهلها من ثراء ورفاهية عيش، مستدلاً على ذلك بكثرة معادن الذهب في أرضها، مما يؤكّد ما بلغته من ازدهار اقتصادي ومكانة حضارية مرموقة<sup>(٣)</sup>.

### المبحث الأول: المظاهر الإسلامية في إمبراطورية مالي الإسلامية:

إنّ إمبراطورية مالي الإسلامية شهدت جزءاً كبيراً من ازدهار العلم والثقافة الإسلامية، ولاسيما في عهد منسا موسى وأخيه منسا سليمان، حيث يُعتبر عهدهما مطلع التقدّم الحضاري الخصب في مملكة مالي الإسلامية، ويمكن تقسيم المعالم الحضارية والثقافية في إمبراطورية مالي الإسلامية إلى عدّة مجالات، منها:

(١) البكري، المسالك والممالك، (٨٧٥/٢).

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت، (٢٨١/٥).

(٣) القاضي محمود كمت التنبكتي، تاريخ الفتاش، دراسة وتعليق: د. آدم بمبا، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق-سوريا، ط١، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م، ص١٢٨.

(٤) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٤١٧هـ، (٢٦٥/٤).

وهذا يدل على أن الإسلام في مالي لم يكن مجرد انتماء سياسي للدولة، بل تحوّل إلى ثقافة سلوكية مؤثرة في تفاصيل الحياة اليومية.

#### ٤) قيمة الشهادة تاريخياً:

تكتسب شهادة ابن بطوطة أهمية خاصة لكونه شاهد عيان، زار مالي في عهد السلطان منسا سليمان، ولم يكن ناقلاً عن غيره. كما أن إشارات بهل مالي في جانب الالتزام الديني تأتي ضمن سياق مقارنته بين المجتمعات التي زارها، مما يمنح وصفه قدراً من المصدقية التاريخية.

#### ثانياً: أداء فريضة الحج:

عُرف ملوك مالي ووجهاتها بشدّة حرصهم على أداء فريضة الحج، مهما بلغت التكاليف والمشاق، إدراكاً منهم لمكانة هذه الشعيرة الدينية والرمزية في العالم الإسلامي. ويُعدّ حج السلطان منسا موسى من أبرز الأحداث التي ذاع صيتها في القرن الثامن الهجري، لما صاحبه من مظاهر الثراء والنفوذ، ولما ترتّب عليه من آثار سياسية واقتصادية وعلمية.

شكّلت هذه الرحلة منعطفاً مهماً في تاريخ إمبراطورية مالي والسودان الغربي عموماً، إذ أسهمت في التعريف بالمملكة خارج نطاقها الإقليمي، وربطتها بصورة أوثق بالمراكز الحضارية في المشرق الإسلامي، ولاسيما القاهرة. كما أثارت الرحلة اهتمام الأوساط السياسية والاقتصادية في مصر وبلاد المغرب، نظراً لما أنفقه السلطان من أموال طائلة أثناء مروره.

نقل العمري رواية عن المهمندار المصري، يصف فيها أثر قدوم السلطان موسى إلى مصر، حيث قال: «ولقد أفاض

اجتماعية عامة، تؤدّي في إطار جماعي منظم، وهو ما يعكس رسوخ الوعي الديني في البنية المجتمعية. كما أن الإشارة إلى ضرب الأولاد عليها تفيد أن التشبّه الدينية كانت جزءاً من النظام التربوي الأسري، وهو ما ينسجم مع التوجيه النبوي في تعويد الصبيان على الصلاة، مما يدل على تأثير المجتمع بالتعاليم الشرعية في سلوكهم اليومي.

#### ٢) البعد الحضاري والاجتماعي:

تتجلّى في النص مظاهر حضارية لافتة، منها: كثرة المصلين يوم الجمعة حتى لا يجد المتأخر موضعاً في المسجد، وهو مؤشر على الكثافة العمرانية، وانتشار العمران الإسلامي في المدن المالية، وتنظيم الحضور إلى المسجد بإرسال الغلمان بالسجاجيد لحجز أماكن، وهو سلوك يعكس انتظاماً اجتماعياً، ويظهر المكانة المركزية للمسجد في الحياة العامة، والاهتمام بالمظهر يوم الجمعة بلبس الثياب البيض النظيفة، ولو لم يكن للشخص إلا ثوب واحد، فيغسله ويتهيأ به للصلاة؛ مما يدل على تعظيم شعائر الله، وارتباط الطهارة الحسية بالطهارة المعنوية.

وهذه الجوانب مجتمعة تشير إلى أن التدين في مالي لم يكن شكلياً، بل كان جزءاً من النسق الثقافي والاجتماعي العام.

#### ٣) البعد التربوي والقيمي:

يتضمّن النص إشارات لمنظومة قيمية واضحة، من أبرزها:

١- تعظيم شعيرة الجمعة بوصفها مناسبة دينية جامعة.

٢- المساواة الظاهرة في العبادة؛ إذ لم يقتصر حضور الجمعة على فئة معينة.

٣- العناية بالنظافة والهيئة الحسنة، وهي من القيم المرتبطة بالوعي الديني.

## ثالثاً: بناء المساجد والجوامع:

من أبرز مظاهر الإسلام في إمبراطورية مالي انتشار المساجد في مدنها وقراها، وقد حرص منسا موسى بعد عودته من الحج على بنائها وجلب فقهاء من الأندلس لتعليم الناس الدين. ذكر صاحب (تاريخ الفتاش) أن منسا موسى بنى في طريق حجه مسجداً جامعاً في كلِّ من تيبكتو، ودُكْرُ، وخُنْدَم، وديري، ووَنُك، وكنك<sup>(٦)</sup>، كما أشار إلى أنه «ما وجدت جمعة في بلد من هنا إلى مصر إلا وبنى فيه مسجداً»، ويُقال إن من جملة ما بناه مسجد كُنْدَم ودُكْرِي<sup>(٧)</sup>. وقد أورد السعدي ما يؤيد ذلك، إذ قال: «فابتنى مسجداً ومحراباً خارج مدين كاغ، صلى فيها الجمعة، وهي هنالك إلى الآن، وذلك عادته- رحمه الله- في كل موضع أخذته الجمعة فيها»<sup>(٨)</sup>.

ويؤكد هذا الخبر أن بناء المساجد لم يكن فعلاً عارضاً ارتبط برحلة الحج فحسب، بل كان سياسة منهجية درج عليها السلطان، تعكس وعياً بدور المسجد في تثبيت الإسلام في المجال العام.

ويكشف هذا التوسع العمراني ذي الطابع الديني عن رؤية إصلاحية واضحة، هدفت إلى تعميم الشعائر، وترسيخ الهوية الإسلامية، وجعل المسجد محوراً للحياة الدينية والاجتماعية والتعليمية، بما يعزز تماسك المجتمع واستقرار المملكة.

ويذكر السعدي أن السلطان منسا موسى كان أول من بنى صومعة الجامع الكبير في

هذا الرجل (السلطان موسى) بمصر فيض الإحسان، لم يدع أميراً مقرباً، ولا ربّ وظيفة سلطانية حتى وصله بجملة من الذهب، ولقد كسب أهل مصر عليه، وعلى أصحابه في البيع والشراء، والأخذ والعطاء ما لا يُحصَر، وبذلوا الذهب حتى أهانوا في مصر قدره، وأرخصوا سعره»<sup>(١)</sup>.

تكشف هذه الشهادة التاريخية عن بُعد اقتصادي مهم لرحلة الحج، إذ لم تكن مجرد أداء لشعيرة دينية، بل تحوّلت لحدث ذي تأثير مالي وتجاري ملموس. كما أسهمت في تعزيز المكانة الدولية لإمبراطورية مالي، وتأكيد ارتباطها بالمراكز الكبرى في المشرق، وترسيخ حضورها في الوعي الجغرافي والسياسي للعالم الإسلامي آنذاك.

ومن أبرز ملوك مالي الذين عرفوا بأداء فريضة الحج:

- ١- منسا علي (ولي): ابن سندياتا كيتا، حجّ في عهد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس<sup>(٢)</sup>.
- ٢- ساكورة: حجّ في عهد الناصر محمد بن قلاوون، وقُتل في طريق عودته سنة ٧٠٠هـ<sup>(٣)</sup>.
- ٣- منسا موسى: حجّ سنة ٧٢٤هـ، وكان حجّه حدثاً بارزاً في تاريخ الإمبراطورية<sup>(٤)</sup>.
- ٤- منسا سليمان: حجّ سنة ٧٥٢هـ/١٣٥١م<sup>(٥)</sup>.

(١) العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله، مسالك الأبحار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبو ظبي ط١، ١٤٢٣هـ، (١٢٤/٤).

(٢) المرجع نفسه.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ص٤٩٦.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، (٢٨٥/٥).

(٦) محمود كمت، تاريخ فتاش، ص١٢٠.

(٧) المرجع السابق، ص١٢٢.

(٨) السعدي، تاريخ السودان، طبعة باريس عام ١٩٨١م، ص٧.

تنبكتو<sup>(١)</sup>. وهو ما يدل على عنايته بالمساجد، إنشاءً وعمارةً، ولاسيما المنارات والصوامع، بما يعكس مكانتها كمركز للعبادة والعلم والاجتماع في مملكة مالي الإسلامية.

وقد سار منسا سليمان بن أبي بكر، شقيق منسا موسى، على هذا النهج، فاستكمل ما بدأه أخوه من فتح بلاد السودان ونشر الإسلام فيها. واهتم ببناء المساجد والجوامع والمآذن، وجلب إلى بلاده فقهاء من المذهب المالكي، فتفقه في الدين، ونشر العلم بين الناس<sup>(٢)</sup>، مما أسهم في نشوء بيئة علمية متكاملة، وازدهار التعليم الديني، وانتشار المذهب المالكي بين الناس.

رابعاً: صيام رمضان والاحتفال بالعيدين:

أما فيما يتعلق بصيام رمضان والاحتفال بالعيدين، فقد ذكر ابن بطوطة أنه حضر بمالي عيدي الفطر والأضحى، ووصف خروج الناس إلى المصلّى بقوله: «وحضرت بمالي عيدي الأضحى والفطر، فخرج الناس إلى المصلّى، وهو بمقربة من قصر السلطان، وعليهم الثياب البيض الحسان، وركب السلطان وعلى رأسه الطيلسان، والسودان لا يلبسون الطيلسان إلا في العيد ما عدا القاضي والخطيب والفقهاء فإنهم يلبسونه في سائر الأيام، وكانوا يوم العيد بين يدي السلطان، وهم يهللون ويكبّرون»<sup>(٣)</sup>. وهذا مما يدلّ على الطابع الجماعي والرسمي للشعائر الدينية، وعلى ارتباط السلطة السياسية بالمظاهر التبدية.

يُبرز النص التزام المجتمع المالي

بالاحتفال بالأعياد الإسلامية وفق السنن الشرعية، إذ يشير إلى خروج الناس لأداء صلاة العيد جماعةً، وهو ما يدل على مركزية هذه الشعيرة في الحياة الدينية، واندماجها في البنية الاجتماعية للمجتمع. كما أن التهليل والتكبير يعكس وعياً بأحكام الشريعة وآداب الاحتفال، ويؤكد أن الممارسة لم تكن شكلية، بل قائمة على إدراك تعبدي منضبط بالسنة.

ومن هذه الشواهد؛ يمكن القول إن المجال الديني شكّل ركيزة أساسية في البناء الحضاري لإمبراطورية مالي، حيث كان الالتزام بالشعائر الإسلامية عنصراً فاعلاً في توجيه الحياة العامة وتنظيمها.

### المطلب الثاني: المجال الاجتماعي-السياسي:

حرص سلاطين إمبراطورية مالي الإسلامية على رعاية شعوبهم حق الرعاية، فكانوا يقيمون العدل بين الناس، ويمنعون الظلم، وينظرون في القضايا والشكاوى بأنفسهم، حيث كان كل مظلوم يلجأ إليهم يحصل على حكم عادل من السلطان مباشرة<sup>(٤)</sup>. وقد تولّى هؤلاء السلاطين مسؤولية الأمن الداخلي، فاطمأنّ كل مواطن على نفسه وأملاكه، واستقرّ الأمن في جميع أنحاء المملكة.

ويُعدّ منسا موسى من أعظم ملوك مالي الإسلامية، فقد جمع بين الصلاح الديني والعدل السياسي، بجانب حنكته في إدارة شؤون الدولة. وقد وثّق المؤرخون أخباراً عن عدله وإنصافه، ووصفه البعض بأنه رجل صالح وعادل لم يسبق له مثيل بين ملوك

(١) السعدي، تاريخ السودان، ص ٨.

(٢) العمري، مسالك الأبصار، (١٠٧/٤).

(٣) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، (٢٦٥/٤).

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، (٢٨٨/٥).

ولاية الأمر، وعلى تطبيق العدالة بشكل مباشر، فقد أوجب منسا سليمان على الأمراء إخباره بأي ظلم يقع في دوائريهم، مؤكداً أن المسؤولية الفردية والجماعية مترابطة، وأن كل من يغفل عن منع الظلم يشترك في وزره. ويعكس هذا الموقف فلسفة الحكم في إمبراطورية مالي الإسلامية التي تقوم على مركزية العدل كقيمة أساسية، تربط بين الشرعية الدينية والمسؤولية السياسية، وتضمن حماية الحقوق واطمئنان الناس على حياتهم وممتلكاتهم، بما يعزز من استقرار المجتمع واستمرار الأمن في البلاد.

وكذلك كان سلاطين مالي مستعدين لرفع الظلم عن رعيّتهم، والتخلي عن أي ممارسة اعتادها المجتمع إذا تبين لهم أنها تُشكل ظلماً على الناس، فقد ذكر العمري أن من عادة أهل المملكة أن يُقدّم للسلطان إذا نشأت لأحدهم بنت حسناء أمةً موطوءة يملكها بغير تزويج. فلما أخبره أحد العلماء أن ذلك لا يجوز شرعاً، قال السلطان إنه لم يكن يعلم بحرمته، وتعهد بترك هذه العادة والرجوع عنها<sup>(٦)</sup>. وهذا مما يعكس وعياً اجتماعياً قائماً على تغليب العدل، وتقييد السلطة بأحكام الشريعة، وهو ما يدل على أن البناء الاجتماعي في الدولة كان قابلاً للإصلاح والتقويم متى ظهر وجه الحق.

وعليه؛ يمكن القول إن البناء الاجتماعي في مملكة مالي الإسلامية قام على مركزية العدل بوصفه قيمةً حاكمةً للنظام العام، ومصدراً رئيساً لتماسك المجتمع واستقراره.

**المطلب الثالث: المجال التعليمي:**

ازدهر العلم في عهد سلاطين مالي،

مالي<sup>(١)</sup>، وكان عالماً ورعاً بجانب حنكته السياسية، وصفه السعدي بقوله: «سلطان ككن موسى هو أول من ملك سغي من ملوك ملّي، وهو صالح عادل لم يكن فيهم مثله في الصلاح والعدل»<sup>(٢)</sup>.

أما أخوه منسا سليمان؛ فقد تميّز بنشر العدل ومنع الظلم خلال فترة حكمه، يذكر العمري أن الشكاوى كانت تُرفع إليه فيفصل فيها بنفسه، مع وجود قضاة وكتاب ودواوين<sup>(٣)</sup>.

وقد زار ابن بطوطة دولة مالي في عهد منسا سليمان، فوصف السلطان بالعدل والاستقامة، وشمول الأمن في البلاد، بحيث لم يكن المسافر أو المقيم يخاف من أي معتد أو سارق، وأن سلطانهم لا يسامح أحداً في الظلم<sup>(٤)</sup>.

وذكر ابن بطوطة موقف السلطان منسا سليمان من الظلم والعدالة، مشيراً إلى حرصه الشديد على ردع الظالمين ومحاسبتهم، حيث قال: «وقال عند ذلك للأمرء: إني بريء من الظلم، ومن ظلم منكم عاقبته، ومن علم بظالم ولم يعلمني به فذنوب ذلك الظالم في عنقه، والله حسبي وسائله. لما قال هذا الكلام وضع الفرارية عمائمهم عن رؤوسهم وتبرؤوا من الظلم»<sup>(٥)</sup>.

يُمثل هذا التصريح نموذجاً واضحاً على مبدأ الرقابة الذاتية للسلطان على سلوك

(١) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، (٢٦٧/٦).

(٢) السعدي، تاريخ السودان، ص ٧.

(٣) العمري، مسالك الأبحار، (١١٨/٤).

(٤) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، (٢٦٥/٤).

(٥) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، (٢٦٢/٤)، والفرارية: هم المسؤولون المحليون (الولاية أو المشرفون على الولايات) الذين كانوا يمثلون السلطة الإدارية للسلطان.

(٦) العمري، مسالك الأبحار، (١١٩/٤).

حيث بُنيت عدة مدارس في المدن الكبرى، وبنوا جوامع علمية، وجُلب إلى بلادهم العلماء والفقهاء، خاصةً في عهد منسا موسى وأخيه سليمان، وشجعوا العلماء والفقهاء على نشر العلم والتعليم، مما جعل كثيراً من طلاب العلم يفتنون إلى بلادهم، ومن أهم هذه الجوامع جامع سنكري، الذي أصبح جامعة علمية في مدينة تمبكتو؛ حيث وفد إليه العلماء وطلاب العلم من داخل مالي وخارجها.

وبلغ من عمق التعليم في نفوسهم وعنايتهم به أنهم كانوا يلزمون أبناءهم بحفظ القرآن الكريم، وكانوا يضعون قيوداً في أرجلهم إذا قصروا في حفظه، ولا تُفك عنهم حتى يحفظوه، كما ذكر ابن بطوطة. وروى أنه دخل على القاضي يوم العيد وأولاده مقيّدون، فلما طلب منه فك قيودهم، رفض حتى يحفظوا القرآن. وقال ابن بطوطة: «كما مررت يوماً بشابٍ منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة وفي رجليه قيد ثقيل، فقلت لمن كان معي: ما فعل هذا؟ أقتل؟ ففهم عني الشاب وضحك، وقيل لي: إنما قيّد حتى يحفظ القرآن!»<sup>(١)</sup>، والربط بين العقوبة المؤقتة (القيود) والواجب الديني يُظهر أن التربية الدينية تتطلب جديةً والتزاماً، وهو ما يعكس مقاصد الشريعة في تعليم القرآن وحفظه، كما يعكس الاهتمام الديني والتربوي في المجتمع المالي في تلك الحقبة، ومدى بناء المجتمع المالي والتزامه بالقيم الدينية والتربوية والتعليمية والاجتماعية والثقافية، ويظهر النص تقدير القرآن ومكانته المقدسة وأن الاهتمام بحفظ القرآن ليس مقتصرًا على طبقة معينة، بل هو سمة عامة، مما

يعكس مركزية الدين في حياة الناس وحُسن إدارة المجتمع.

وقد اشتهرت مدنٌ مثل نياني عاصمة مالي، وتمبكتو وجني وغاو بمكانتها العلمية، فقصدتها طلاب العلم من مختلف الجهات للأخذ عن علمائها. ولم يقتصر اهتمام سلاطين مالي على ذلك، بل أرسلوا بعثات علمية إلى الحجاز والمغرب والأندلس، مثل بعثة سلطان ككن موسى التي ضمّت كاتبه وأخويه لطلب العلم. وبذلك عدت إمبراطورية مالي مركزاً مزدهراً للعلم والثقافة، تنتشر فيه الحلقات العلمية في المساجد، ويقصده العلماء والفقهاء من شمال إفريقيا ومصر والحجاز<sup>(٢)</sup>.

إن حركة تأسيس المساجد والجوامع في مملكة مالي في عهد منسا موسى وأخيه منسا سليمان قد شملت إقامة المجالس العلمية، التي قصدتها طلاب العلم، فانتشرت الثقافة الإسلامية والعربية، ولاسيما العلوم الشرعية واللغوية. ومن العلماء الذين نذروا حياتهم للتعليم والتدريس العالم الفقيه القاضي عبد الرحمن بن أبي بكر الحاج، وهو أول من ترجم له السعدي من علماء تمبكتو، وقد تولّى القضاء أواخر عهد مملكة مالي، وأمر بقراءة حزب من القرآن في جامع سنكري بعد العصر والعشاء<sup>(٣)</sup>.

## المبحث الثاني: ازدهار العلاقات والتأثير الحضاري

شهدت إمبراطورية مالي الإسلامية خلال عهد سلاطينها ازدهاراً في العلاقات الدبلوماسية مع ممالك المغرب ومصر،

(٢) د. علي يعقوب، دولة مالي الإسلامية، ص ١٥.

(٣) السعدي، تاريخ السودان، ص ٢٧.

(١) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، (٤/٢٦٥).

من رحلة الحج، حيث استعان بأحد علماء الأندلس، أبي إسحاق السهلي من غرناطة، للإشراف على بناء القصور والمساجد، مما أسهم في نقل وتوطين فنون العمارة الإسلامية في غرب إفريقيا.

وقد أنجز السهلي عدة أعمال بارزة، منها بناء مسجد عظيم في مدينة غاو، ومسجد آخر في تمبكتو، بالإضافة إلى قصر منسا موسى نفسه، الذي يُعدّ نموذجاً للعمارة الملكية في مالي. وقد أشار المؤرخ ابن خلدون لذلك قائلاً: «فجاءت من أتقن المباني، ووقعت من السلطان موقع الاستغراب لفقدان صنعة البناء بأرضهم، ووصله باثني عشر ألفاً من مثاقيل التبر ماثوبةً عليها»<sup>(٢)</sup>.

ويعكس هذا الإنجاز العمراني انتقال بعض الخبرات الفنية والمعمارية من الأندلس إلى غرب إفريقيا، كما يشير إلى حرص سلاطين مالي على تجسيد السلطة السياسية والروحية عبر الفن المعماري، وربطه بالقيم الدينية والجمالية، مما ساهم في تعزيز الهوية الحضارية للمملكة.

### المطلب الثاني: بناء الدولة ومؤسساتها الحضارية.. الوزراء والقضاة والكتاب:

تُعدّ المناصب السلطانية ركيزةً أساسية في بناء الدولة ومؤسساتها الحضارية. ففي مملكة مالي الإسلامية كان للسلطة مسؤولون ذوو أهمية، من وزراء وقضاة وكتاب ورجال الدواوين، يشرفون على شؤون الحكم وتنفيذ القوانين. وكان السلطان يفوض الأمور إلى المختصين، وتُكتب المكاتبات بالخط العربي المغربي، مما يعكس أثر الثقافة الإسلامية

ولاسيما نتيجة رحلات الحج التي قام بها الحكام، والتي أسفرت عن تبادل المعرفة والثقافة، وتعزيز التواصل السياسي والديني بين مالي والعالم الإسلامي.

تجلّى هذا التواصل بوضوح في العلاقات التي قامت بين منسا موسى وسلطان المغرب أبي الحسن المريني، حيث ذكر ابن خلدون أنّ المراسلات والمهاداة قد جرت بينهما، وتبادلت الدولتان السفارات والهدايا، وسافرت الأعلام من رجال البلاطين في مهام رسمية عززت أواصر الود والتعاون. ويعكس هذا التبادل مستوى من التنظيم السياسي والرفعي الإداري، كما يدل على اعتراف القوى المغاربية بمكانة مالي وثقلها في غرب إفريقيا<sup>(١)</sup>.

إن هذا الانفتاح الدبلوماسي لم يكن معزولاً عن أثره الحضاري، بل أسهم في انتقال المعارف والعلوم والعمران، وأدى لتعميق الطابع الإسلامي في مؤسسات الدولة، وربطها بالشبكة الواسعة للعالم الإسلامي، فكانت مالي بذلك مثلاً لدولة إفريقية استطاعت أن تجمع بين القوة السياسية والتأثير الحضاري في إطار من الانتماء الإسلامي والوحدة الثقافية.

وقد نتج عن هذه العلاقات تأثيرات حضارية ملموسة في مختلف مجالات الحياة، أبرزها التطور العمراني وفن العمارة، وبناء الدولة، وانتشار اللغة العربية، ورواج التجارة والاقتصاد.

### المطلب الأول: التطور العمراني وفن العمارة:

برز فن العمارة في السودان الغربي خلال عهد منسا موسى، ولاسيما بعد عودته

(١) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، (٢٦٨/٦).

(٢) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، (٢٦٧/٦).

في تنظيم الإدارة<sup>(١)</sup>.

الدينية والسياسية في خدمة المجتمع والدولة، ويُجَلِّي بوضوح الدور المحوري الذي كان يلعبه القاضي والفقهاء والخطيب في هذه المملكة.

### المطلب الثالث: انتشار اللغة العربية:

أسهمت العلاقات الدبلوماسية التي أقامها سلاطين إمبراطورية مالي مع ممالك المغرب ومصر وغيرها من أقاليم العالم الإسلامي في تعزيز الحضور الثقافي والحضاري للغة العربية داخل البلاد. فقد أدّت رحلات الحج، وما تبعها من تواصل علمي وإداري، إلى ترسيخ العربية لغةً للكتابة الرسمية والمراسلات الدبلوماسية، كما أصبحت لغة الوثائق والعقود والمعاملات في الدواوين السلطانية.

وقد تجاوز تأثير العربية الجانب الإداري ليشمل المجال الثقافي والتعليمي؛ إذ أضحت لغة الثقافة والعلم والتجارة، بينما ظلّت اللغات المحلية مستعملةً في التخاطب اليومي بين عامة الناس. وانتشرت المدارس القرآنية في المدن والقرى، فكان انتشارها سبباً مباشراً في انتشار لغة القرآن وعلومه، مما أسهم في تكوين طبقة من العلماء والفقهاء المتقنين للعربية، والقادرين على التواصل العلمي مع مراكز الحضارة الإسلامية في المشرق والمغرب<sup>(٤)</sup>.

وقد بلغ من إتقان بعض سلاطين مالي للغة العربية أن السلطان منسا موسى نفسه كان يُحسن التحدّث بها، كما أشار العمري، حيث نقل عن الأمير أبي العباس أحمد بن الجاكي المهمندار قوله في وصف السلطان موسى: إنه كان كريماً ذا مروءة ودين، وقد أكرم الوفد

في مملكة مالي الإسلامية، كان للفقهاء والقضاة والخطباء والوزراء أدوار متكاملة أسهمت في بناء الدولة وتحقيق استقرارها. فقد كان الفقهاء يقومون بتعليم الناس الدين وأحكام الشريعة المالكية، والإشراف على السلطان في المسائل الشرعية، ونشر الثقافة الدينية بين العامة. بينما تولّى القضاة تحقيق العدالة والفصل في النزاعات وحماية حقوق الرعية، ومراقبة المسؤولين للتأكد من عدم تعديهم على الناس. وكان الخطباء يوجهون الناس دينياً وأخلاقياً عبر خطب الجمعة، ويعززون الالتزام بالعبادات والقيم الإسلامية. أما الوزراء فكانوا يديرون شؤون الدولة اليومية، وينظّمون عمل الإدارات، ويشرفون على الشؤون المالية والعلاقات الخارجية، وينفذون سياسات السلطان.

تضافرت هذه الأدوار جميعها لضمان نشر الإسلام وتحقيق العدالة الاجتماعية وتعزيز استقرار الدولة وانتشار العلم والثقافة بين سكانها، ومن ذلك ما ذكره ابن بطوطة عن منسا سليمان حين فرّق على القاضي والخطيب والفقهاء مالا ليلة ٢٧ رمضان يسمّونه الزكاة<sup>(٢)</sup>. وذكر ابن بطوطة أن منسا سليمان صنع طعاماً برسم عزاء مولانا أبي الحسن رضي الله عنه، واستدعى الأمراء والفقهاء والقاضي والخطيب، فحضروا معه، وأتموا ختم القرآن، ودعوا لمولانا أبي الحسن، ودعوا لمنسا سليمان<sup>(٣)</sup>.

كل هذا يوضح التناغم بين الوظائف

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، (٢٨٦/٥-٢٨٧).

(٢) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، (٢٥٦/٤).

(٣) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، (٢٥٥/٤).

(٤) د. علي يعقوب، دولة مالي الإسلامية، ص ١٦.

ولم يكن هذا النشاط التجاري عفويًا، بل كان نتيجة سياسة واعية انتهجها سلاطين مالي، حيث عملوا على تأمين طرق التجارة، وتنظيم الأسواق، وتعيين المشرفين عليها، وتوفير الحراسة للقوافل التجارية، مما أتاح بيئة آمنة ومستقرة ساعدت على ازدهار المبادلات التجارية داخلياً وخارجياً، وتسيير القوافل إلى شمال إفريقيا ومصر محملة بالذهب والنحاس، حتى نشطت التجارة الصحراوية وازدادت، وبخاصة عقب رحلة كنكن موسى لمصر في طريقه إلى الحج<sup>(٣)</sup>. وقد شكّلت تجارة الذهب والملح على وجه الخصوص العمود الفقري للاقتصاد، حتى أصبحت مالي من أشهر مراكز الذهب في العالم الإسلامي آنذاك. وقد أشار العمري إلى ما أحدثته رحلة منسا موسى إلى مصر في طريقه إلى الحج من أثر اقتصادي واسع، حيث لفتت أنظار العالم الإسلامي إلى ثروات مالي، وأسهمت في توسيع شبكاتها التجارية وتعزيز حضورها في الأسواق الإقليمية<sup>(٤)</sup>. ويؤكد بعض الباحثين المعاصرين أن بلاد السودان الغربي نسجت علاقات تجارية متينة مع بلاد المغرب، إذ كانت تجلب منها الملح- الذي يُعدُّ سلعة إستراتيجية بتلك البيئة- إضافةً إلى الحبوب والتمور والمنتجات المُصنَّعة، في حين كانت تُصدّر الذهب والعاج والعبيد، مما مكَّنها من تحقيق ثراء واسع النطاق، و«مما خول لها شهرة طبقت الآفاق، الشيء الذي جعل الرحالة العرب يتجهون إليها؛ ليشاهدوا ويعاينوا ما يحكيه التجار؛ وليسجلوا في كتاباتهم وشهاداتهم ما

المصري غاية الإكرام، وكان- مع إجادته للسان العربي- لا يحدّثه إلا بواسطة ترجمان<sup>(١)</sup>. تكشف هذه الشهادة التاريخية عن مستويين من الحضور اللغوي للعربية في مالي:

١- مستوى رسمي إداري: تمثّل في اعتمادها لغةً للدواوين والمراسلات.

٢- مستوى علمي ثقافي: تجلّى في انتشار التعليم القرآني، وتكوّن نخبة متعلمة بالعربية. ومن ثَمَّ، يمكن القول إن انتشار اللغة العربية في إمبراطورية مالي كان تعبيراً عن اندماج حضاري في الفضاء الإسلامي العام، وانفتاح علمي وثقافي أسهم في ترسيخ الهوية الإسلامية للمملكة، مع بقاء اللغات المحلية حاضرةً في المجال الاجتماعي اليومي.

#### المطلب الرابع: رواج التجارة والاقتصاد:

كان من أبرز ثمار العلاقات الدبلوماسية التي أقامها سلاطين إمبراطورية مالي مع العالم الإسلامي تنشيط الحركة التجارية واتساع نطاقها. فقد تحوّلت مالي لمركز تجاري مهم في شبكة التجارة الصحراوية، حيث وفد إليها التجار من شمال إفريقيا وغيرها طلباً لثرواتها المعدنية والزراعية، حيث تمتعت البلاد بموارد طبيعية وافرة، من أبرزها الذهب والنحاس والملح، إضافةً لخصوبة أراضيها ووفرة مياهها، مما جعل اقتصادها يقوم على الزراعة وتربية الماشية بجانب النشاط التعدين. كما أشار ابن بطوطة إلى وفرة الغذاء في مالي، وذكر أن المسافر لا يحتاج لحمل الزاد لكثرة ما يجده من طعام في القرى التي يمرّ بها، وهو ما يدل على استقرار اقتصادي وأمن غذائي واضح<sup>(٢)</sup>.

(٣) د. علي يعقوب، دولة مالي الإسلامية، ص ١٦.

(٤) د. علي يعقوب، دولة مالي الإسلامية، (٤/١٢٤).

(١) العمري، مسالك الأبحار، (٤/١٢٢).

(٢) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، (٤/٢٦٥).

اعتمده الأوروبيون في معرفتهم لذلك العالم المجهول عنهم حتى القرن 19م<sup>(1)</sup>.

ومن ثمّ، يتبيّن أن ازدهار التجارة في إمبراطورية مالي لم يكن مجرد نشاط اقتصادي محدود، بل كان عنصراً أساسياً في تشكيل قوتها السياسية ومكانتها الحضارية، وأسهم في دمجها في الفضاء الاقتصادي للعالم الإسلامي، وجعلها محوراً رئيساً في التجارة الصحراوية طوال فترة ازدهارها.

### الخاتمة :

بعد استعراض مظاهر الازدهار الحضاري في إمبراطورية مالي الإسلامية، يمكن استخلاص النتائج الآتية:

1- أن إمبراطورية مالي الإسلامية بلغت درجة متقدمة من التنظيم الحضاري في عهد سلاطينها، ولاسيما في فترة حكم منسا موسى وأخيه منسا سليمان، حيث مثل عهدهما مرحلة النضج السياسي والديني والاقتصادي للمملكة.

2- أن الدين الإسلامي شكّل الركيزة الأساسية في البناء الحضاري للدولة، إذ تجلّى أثره في التزام المجتمع بالشعائر، وانتشار التعليم القرآني، وارتباط السلطة السياسية بالقيم الدينية، مما أوجد مجتمعاً متماسكاً قائماً على المرجعية الإسلامية.

3- أن مبدأ العدل كان أساس النظام السياسي والإداري، فقد حرص السلاطين على إنصاف الرعية، والنظر في المظالم، وتأمين الاستقرار الداخلي، وهو ما أسهم في ترسيخ الأمن العام وتعزيز الثقة بين الحاكم والمحكوم.

4- أن العلاقات الدبلوماسية مع ممالك المغرب ومصر والعالم الإسلامي كان لها أثر حضاري عميق، إذ لم تقتصر على الجانب السياسي، بل أسهمت في نقل الخبرات العلمية والعمرانية والثقافية إلى بلاد مالي.

5- أن التطور العمراني في مالي كان ثمرة مباشرة للاحتكاك الحضاري، خاصةً بعد رحلة الحج التي قام بها منسا موسى، حيث انتقلت فنون العمارة الإسلامية إلى السودان الغربي، مما أحدث نقلة نوعية في بناء المساجد والقصور.

6- أن اللغة العربية أصبحت لغة الإدارة والثقافة والتجارة، وأسهم انتشار المدارس القرآنية في ترسيخها كلفة علم ومعرفة، مما مكّن مالي من الاندماج في الفضاء الحضاري الإسلامي مع احتفاظها بلغاتها المحلية في المجال الاجتماعي.

7- أن النشاط التجاري شكّل دعامة قوية للازدهار الحضاري، حيث تحولت مالي لمحور رئيس في التجارة الصحراوية، معتمدة على ثرواتها المعدنية والزراعية، ومستفيدة من تأمين الطرق وتنظيم الأسواق، مما منحها مكانة اقتصادية مرموقة في العالم الإسلامي.

8- أن رحلة منسا موسى إلى الحج لم تكن حدثاً دينياً فحسب، بل كانت حدثاً حضارياً ذا أبعاد سياسية واقتصادية وثقافية، إذ أسهمت في التعريف بثروات مالي، وتوسيع شبكة علاقاتها، وتعزيز حضورها الدولي آنذاك.

9- أن التجربة الحضارية لإمبراطورية مالي تمثل نموذجاً لاندماج الهوية الإفريقية في الإطار الحضاري الإسلامي دون ذوبان كامل للخصوصيات المحلية، بل في صورة

تفاعل وتكامل ثقافي ■

(1) د. حسن الصادقي، أضواء على ممالك غرب إفريقيا وعلاقتها ببلاد المغرب، معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، <http://www.startimes.com/?t24609346>